الفصل الأول

بدء خلق السموات والأرض

المبحث الأول: آيات مختارة في خلق السماوات والأرض:

لعل من الأولى- بعد استعراض الآيات- أن يكون بدء البحث عن بدء خلق السموات والأرض ليكون التسلسل منطقياً:

* ففي سورة الأنبياء تكون البداية، قال تعالى ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾ ٣٠- قال في تفسير الكشاف: "قلت: الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لأنه مصدر، فما بال الرتق؟ قلت: هو على تقرير موصوف، أي كانتا شيئاً رتقاً" وعند القرطبي: "ذواتي رتق، ومعنى ذلك: أن السماء كانت لاصقة بالأرض لا فضاء بينهما، أو كانت السموات متلاصقات، وكذلك الأرضون لا فُرج بينها ففتقها الله وفرّج بينها" هذا قول.

لقد عبر بالمصدر "رتقاً" وذلك لإفادته العموم وهو

يصح مع المفرد والمثنى والجمع، ثم فتقهما الله وفصلهما، والرتق: ضم هذه لتلك لتبدو واحدة، كما أن دلالة لفظ الفتق أقوى من دلالة لفظ الفصل، ويستعمل اللفظان في مهنة الخياطة، فالرتق ضم قطع الثوب بعضه لبعض وفق هندسة معينة يتم فيها تشكيل الثوب وكذلك الفتق عودة القطع كما كانت قبل الرتق، واستخدام كلمة "الفصل" قد يدخل قطعاً من هذه في تلك لأنه سيكون مثل قطع السيف للأشياء على استقامة واحدة وهذا غير المراد والمشاهد في الأرض، وفي هذه الآية استعارة توضيحية لتقرير المراد والصورة إلى الخيال لأن الأمر غيبي وإخبار الله لنا عن هذا الأمر ينبغـــي تصديقه على كل حال، كما فيها من أنواع البديع:

- الطباق بين رتق وفتق، وهما متـــضادان، واختيـــار الكلمتين (الرتق، الفتق) يدل على أن السموات والأرض وإن كانتا في حالة الرتق إلا أنهما لم تكونا منصهرتين بعضهما ببعض وإنما خلقهما الله معاً على أن تفصـــلا

وفق إرادته فيما بعد ولكل منهما ميزتها وخاصتها، وإلا لكان التعبير عنهما بالوحدة، أي كانتا شيئاً واحداً، وهاتان اللفظتان دليل إعجاز القرآن في دقة التعبير والله أعلم.

والقول الثاني في تفسير الآية: أن السموات كانت رتقاً لا تمطر ففتقها الله بالمطر، والأرض كانت رتقاً لا تنبت ففتقها الله بالنبات، ودليلهم ما جاء بعدها إشارة إلى ذلك ﴿**وجعلنا من الماء كل شيء حي**﴾ كما عبر عن الجمع بالتثنية ﴿**كانتا رتقاً**﴾ وذلك إما للدلالة عنهما قبل الفصل ثم فتق كلاً منهما سبعاً، وكذلك قوله ﴿**كانتا**﴾ وهما قبل الفصل شيء واحد فكيف ثناهما؟ واستعمال هذا الأسلوب في البلاغة يسمى: على ما سيكون عليه الحال، أو ما سيكون المآل إليه.

* وفي سورة الملك تأكيد على حدوث الفتق في السماء لتكون سبع سموات ﴿**الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور**﴾ وهنا جعل الصفة للموصوف مراعياً

الفتح فيه توجيه النظر إلى العدد وإلى قدرة الخالق على جعلها طبقات بعضها فوق بعض مع مساحات شاسعة بعيدة، بينما وفي سورة يوسف ﴿**سبع بقرات سمان**﴾ وصف المضاف إليه للفت الانتباه تجاه وصف البقرات بالسمان، وفي سورة (ق) الانتقال من طور الخلق الأولى إلى طور أرقى ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ**﴾ ٦- فالطلب إلى الخلق بالنظر لما أوجده الله يفيد:

- الالتفات وتنبيه الناظر إلى القدرة والعظمة والمهارة والإتقان في الصنع وفي كلا الآيتين:

- فإن الاستفهام استنكاري يفيد التوبيخ- كما ذكر في كتاب الإتقان- لغفلتهم عن هذا الأمر وختمت الآية بكلمة ﴿**فروج**﴾ وفيها:

- مراعاة للفواصل في السورة، وهذا من الإعجاز البياني، ففي سورة الملك راعى الفواصل في كلمة ﴿**فطور**﴾ وكلاهما تفيد التشقق أو العيب في الصنعة، فكان التنويع في المترادفات مراعاةً للفواصل في كـــل

سورة، وورد في فتح القدير للشوكاني "أن الفطور: تعني الشقوق والصدوع والخروق، كما ورد فيه الفروج: تعني الفتوق والشقوق والصدوع".

* وفي سورة الذاريات ﴿**والسماء ذات الحبك**﴾ أقسم الله بالسماء ذات الحبك، لأهمية القسم به فما معنى الحبك؟

الحبك: كما ورد في القاموس المحيط:" الشدة والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، والبناء الوثيق القوي، وحبك الثوبَ: إذا أتقن صنعه"، وفي تفسير ابن كثير عن ابن عباس "الحبك: ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، وفيه أيضاً عن الضحاك والمنهال بن عمرو وغيرهما: مثل تجعد الماء والرمل والزرع إذا ضربته الريح فينسج بعضه بعضاً طرائق طرائق فذلك الحبك".

وفي الآية من البلاغة:

- استعارة، حيث استعار كلمة الحبك لوصف بناء السماء وإتقانه من الثوب المحبوك الذي تأمله المتأمل لم يجد فيه عيباً، وفي السورة نفسها أكد

على بنائها وقوتها بقوله ﴿**والسماء بنيناها بأيد وإنَّا لموسعون**﴾ وفيها:

- مجاز مرسل على رأي من قال في القرآن مجاز، فالأيدي بمعنى القوة، وسمي الإيهام ويدعى التورية، قال في الإتقان: ﴿**والسماء بنيناها بأيدٍ**﴾ فإنه يحتمل الجارحة وهو المورَى به، وقد ذكر من لوازمه على جهة الترشيح البنيان، ويحتمل القوة والقدرة وهو البعيد المقصود"، وأما السعة فتوحي إلى عظمة الباني إذا علمنا أن العلم في هذا العصر قد عجز عن إعطاء رقم حقيقي لهذه السعة، لا أقول سعة السموات السبع ولكن سعة السماء الدنيا- وسنذكر موجزاً لما توصل إليه العلم في هذا الشأن عند الحديث عن النجوم والكواكب، وكلمة ﴿**موسعون**﴾ تدل على تعاظم الكون واستمرار سعته وهذا من الإعجاز الرباني في خلق الكون.

* وفي سورة البقرة ٢٢ هيأ الله السماء والأرض لصالح الإنسان وخيره بعد إتمام تشكيلهما ﴿**الَّذِي جَعَلَ**

لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ﴾ قال القرطبي: "جعل بمعنى صير لنصبها مفعولين، وفراشاً أي وطاء يفترشونها ويستقرون عليها، والسماء بناء: السماء للأرض كالسقف للبيت، وقد جعل الله تعالى السماء مستودع المطر يغيث به البلاد والعباد، كما جعل الأرض مستودع الإنبات، فالسماء تروي والأرض تنبت وهذا لصالح الإنسان وما على الأرض من أحياء".

وفي الآية من البلاغة الآتي:

- ورد في كتاب البلاغة العربية: "ومن الطباق المعنوي قوله تعالى ﴿**جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء**﴾ طابق بين الأرض والسماء طباقاً لفظياً ظاهراً، ولكنه طابق بين الفراش والبناء طباقاً معنوياً لأنه لما كان البناء رفعاً للمبني قوبل بالفراش الذي هو على خلاف البناء؛ أي الفراش خفض والبناء رفع". ص ٢٧٤.
- استعارة، حيث استعار للأرض كلمة الفراش، ليدلل

على انبساطها وإراحتها للإنسان واستقرارها به، أو على قولٍ آخر بأنها تشبيه مؤكد حذف منه أداة الشبه قياساً على ما ذكره الدكتور وليد قصاب عن آية ﴿**ألم نجعل الأرض مهاداً**﴾ ص ٧٤ السابق.

- كما ذكرت هذه في كتاب الإتقان أنها تفيد التعليل "فإن النفوس أبعث على قبول الأحكام المعللة من غيرها ومما يقتضي التعليل لفظ (الحكمة) كقوله تعالى: ﴿**حكمة بالغة**﴾ وذكر الغاية من الخلق نحو قوله تعالى: ﴿**جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء**﴾ ص ٦٢٩ فكان تعليل خلق الأرض والسماء.
- وفي ﴿**فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**﴾ اختصار مراحل الإنبات بذكر النتيجة من إنزال المطر وهذا من المجاز المرسل على اعتبار ما سيكون المآل إليه.

المبحث الثاني: آيات مختارة في خلق السموات والأرض بالحق وليس للهو واللعب.

* ففي سورة العنكبوت، قال الله تعالى ﴿**خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ**﴾ ٤٤- قال في تفسير ابن كثير (إن الله خلق السموات والأرض بالحق، يعني لا على وجه العبث واللعب، وهناك آيتان تذكران صراحة هذا المعنى، في سورة الأنبياء، وسورة الدخان ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ الدخان ٣٨-٣٩، وعليه فإن في الآية من البيان القرآني ما يشير إلى عظمة الخالق وجدية الأمر في خلق السموات والأرض والتوجيه إلى أخذ الأمور بالجد والإتقان وأن الإنسان مؤاخذ من أعماله إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً.

المبحث الثالث: آيات مختارة في مدة خلق السموات.

وباعتبارنا أفردنا هذا الفصل لذكر نشوء الكون فإنه من المكمل لهذا الفصل ذكر مدة خلق السموات، فقد استغرقت كما أراد الله يومين من أيام الله (﴿**فَقَضَاهُنَّ**

سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ فصلت ١٢- آية في منتهى الجمال.

فيها من البلاغة:

- الالتفات حيث انتقل من ضمير الغائب ﴿**فقضاهنَّ**﴾ إلى ضمير المتكلم (**وزينَّا**) .
- الاستعارة، حيث استعار كلمة مصابيح للنجوم.
- وفيها من البيان القرآني الجمع، وقد جمع بين الزينة التي هي في المصابيح والحفظ التي هي مهمة لرجم الشياطين منعاً لاستراق السمع.
- الفاصلة ومجيئها ﴿**ذلك تقدير العزيز العليم**﴾ لتمكين المعنى، فالعزة والقوة: للبناء والتزيين، والعلم: بحال عددها ومدة خلقها وأمر حفظها.